سلسلة في فلوبنا إصدار رقم ١

الطبعة الثالثة ٣
مزيدة و منقحة

سِرُّ الخُصُوصِيَّةِ فِي الإِرتِبَاطِ بِخَيرِ البَرِيَّةِ

علي زين العابدين بن عبد الرحمن الجفري

فضيلة الحبيب
علي زين العابدين بن عبد الرحمن الجفري

* ولد في مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية عام ١٣٩١هـ الموافق ١٩٧١م، من والدين شريفين من ذرية الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب عليهما السلام.

* تلقى العلم الشرعي بالسند المتصل على يد أكابر علماء الأمة وأخذ الإجازة من أكثر من ثلاثمائة عالم في مختلف العلوم ومشارب التربية من مختلف بلاد العالم الإسلامي، كالسعودية واليمن و مصر والشام والأردن والمغرب العربي وغيرها.

* قام بإلقاء مئات المحاضرات والدروس في مختلف بلاد العالم شرقا وغربا.

* شارك في العديد من المؤتمرات والملتقيات في دول مختلفة.

* له العديد البرامج التلفزيونية والإذاعية والمقالات والمقابلات الصحفية، إضافة إلى المطبوعات المقروءة والمرئية والسمعية.

WWW.ALHABIBALI.COM

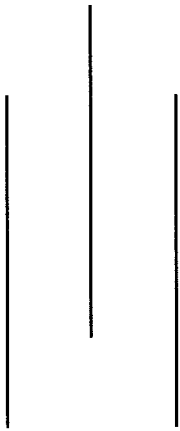

سر الخصوصية في الارتباط بخير البرية

الحبيب علي زين العابدين الجفري

جميع الحقوق محفوظة
لدار الفقيه

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقَّحة
١٤٣٥ هـ / ٢٠١٤ م

الحبيب علي زين العابدين الجفري

سر الخصوصية في الارتباط بخير البرية

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلاته وسلامه على مصطفاه وآله وصحبه
وأهل حقيقة حبه

وآية حب الله منا اتباعه
به وعد الغفران بعد المحبة
ومن يطع الهادي أطاع الهه
ومن يعصه يعصى الاله ويمقت
ومن بايع المختار بايع ربه
يد الله من فوق الأيادي الوفية

أما بعد فقد رأيت في هذه الرسالة المباركة
المحاضرة التي كتبت للسيد الكريم الموفق
علي زين العابدين بن عبد الرحمن بن علي الجفري
باعلوي رأيت فيها حسن بيان لبديع معان
حملها إلينا وحي الرحمن وهدي وبلاغ سيد الأكوان
توضح حقائق في صلة المؤمنين بخير الخلائق
من سر إيمانهم بالخالق وتبرز معالم خير الطرائق
في مسلك الصحب الكرام وتابعيهم من كل لائق
وضاعف الله بها النفع للأمة وضاعف فيها
البركة وبها لكل مساهم في نشرها وقارئ وسامع
لها وامدهم بالتوفيق ونور الفهم وتحوطهم الوهم وإحسان
القيام بالمهمة وأتحف المحاضر الملقي لها ما هو تعالى
أهله مما لا يحيط به غيره من خيرات وسعادة الدارين
في عافية

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ
٢٩/١٠/١٤٣٤هـ
٤/٩/٢٠١٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

تقريظ

فضيلة الإمام العلامة الرباني

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

الحمد لله وصلاته وسلامه على مصطفاه وآله وصحبه وأهل حقيقة حبه

وآيـــة حـــب الله منـــا اتباعـــه
بـه وعـد الغفـران بعـد المحبـة
ومـن يطـع الهـادي أطـاع إلهـه
ومـن يعصـه يعـص الإلـه ويمقـت
ومـن بـايع المختـار بـايع ربـه
يـد الله مـن فـوق الأيـادي الوفيـة

أما بعد، فقد رأيت في هذه الرسالة المباركة، المحاضرة التي كتبت للسيد الكريم الموفق، علي زين العابدين بن عبد الرحمن بن علي الجفري باعلوي، رأيت فيها حسن

بيان لبديع معان حملها إلينا وحي الرحمن، وهدي وبلاغ سيد الأكوان، توضح حقائق في صلة المؤمنين بخير الخلائق، من سر إيمانهم بالخالق، وتبرز معالم خير الطرائق في مسلك الصحب الكرام وتابعيهم من كل ذائق، فضاعف الله بها النفع للأمة وضاعف فيها البركة وبها لكل مساهم في نشرها وقارئ وسامع لها، وأمدهم بالتوفيق ونور الفهم، ومحو ظلمة الوهم، وإحسان القيام بالمهمة، وأتحف المحاضر الملقي لها ما هو تعالى أهله مما لا يحيط به غيره من خيرات وسعادة الدارين في عافية

عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ

٢٩ /١٠ / ١٤٣٤ هـ

٤/ ٩ / ٢٠١٣ م

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات... الحمد لله كما يليق بفضله وإحسانه... الحمد لله على جوده وامتنانه... وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خير البرية وهادي البشرية إلى أقوم طريق وعلى آله وصحبه ومن ارتبط بحضرته وسلك نهجه إلى يوم الدين.

وبعد فهذه باكورة سلسلة حي في قلوبنا التي تهدف إلى إحياء محبة رسول الله ﷺ في قلوب العالمين سبيلاً إلى التمسك بالأخلاق والتعاملات النبوية، تناول الحبيب علي زين العابدين الجفري فيها دلالات اكتمال الإيمان بمحبة سيد الأكوان في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾، وقد اعتنى بتخريج ما بها من أحاديث وآثار الدكتور مصطفى أبو زيد رشوان مدرس الحديث وعلومه بجامعة الأزهر، وبمهمة المراجعة اللغوية الدكتور أحمد نبوي الأزهري بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر، بإشراف فضيلة الشيخ محمد الأمين أكتوشني الشنقيطي، فجزاهم الله تعالى خير الجزاء على ما بذلوه من جهد و عناء وحسن اعتناء ليخرج الكتاب في صورته الراهنة.

د. محي الدين أحمد

مكتب الحبيب علي زين العابدين الجفري

أبوظبي – تريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله على فضله وإحسانه، وجوده وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادةً تَزُجُّ بنا في بحار معرفته ورضوانه، وأشهد أن سيدَنا ومولانا محمداً عبدُه ورسولُه صفوةُ الخلق وزينةُ جنانه، صلواتُ ربي وسلامُه عليه وعلى عترته وأصحابه، وتابعيهم والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

۞ أعمار الإنسان:

إن الحديث عن سر ارتباط الإنسان بهادي البشرية ﷺ يتطلب بداية الحديث عن المقصد من وجود الإنسان ومهمته في هذه الحياة، حيث إن لوجوده في هذه الحياة مقصداً ومهمة، وإن أولَ ما ينبغي أن يفقَهه الإنسان هو ماهيةُ المقصود الأصلي من وجودنا في هذه الحياة، فهناك مقصدٌ أصلي، وهناك وظيفةٌ ومهمةٌ كلفنا الله بها في هذه الحياة القصيرةِ، وأقول القصيرة لأن هناك حياةً طويلة وأخرى

قصيرة؛ فبداية حياة الإنسان الطويلة منذ أن نفخ الله الروح في آدمَ عليه السلام، وأودع أرواح ذريته في ظهره بعد أن أشهدهم على أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[1].

فمنذُ ذلك الوقتِ بدأت حياتُنا، ثم تنقَّلنا من أصلاب آبائنا إلى أرحام أمهاتنا حتى بدأت الحياةُ الثانيةُ بولادة الواحد منا والتي تنتهي بوفاته، ثم تبتدئ الحياة الثالثة عند وفاته وتنتهي بالقيامة وهي حياة البرزخ، ثم تبتدئ الحياة الرابعة بالنفخة الثانية في الصور، عندما ينفخ إسرافيل بأمر الجليل جل جلاله في الصور فيُحشر الخلقُ وتعود الحياةُ الحسيةُ إلى الناس، فيخرجون من قبورهم إلى أن يدخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ- والعياذ بالله - ثم تبتدئ الحياة الخامسة بدخولِ أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ إلى ما لا نهاية.

فحياتنا مِن ثَمَّ طويلة جدًا، أقصرُ مراحلِها ما يكون منذ

(١) الأعراف: ١٧٢.

الولادة إلى الوفاة، وبالرغم من أن ما نعيشُه الآن هو أقصر مراحل الحياة، إلا أنه الأهمُّ والأخطرُ في حياة الإنسان، لأن ما قبله من مراحلَ كان مجردَ تهيئةٍ له، وما بعده من مراحلَ ثمرة له. وقد ألف في هذا الفَهم لمراحل الحياة وأطوارها الإمامُ الحدادُ ـ رحمه الله ونفعنا به ـ كتابًا سماه: **«سبيل الادكار والاعتبار فيما يمر بالإنسان وينقضي له من أعمار»**[1].

۞ الغاية من الوجود ومهمة كل موجود

ولعل أكثرَ أهل الأرض اليوم، بل أكثرَ المسلمين ـ يا للأسف ـ تنحصر حياتهم في فكرهم وأعمالهم وانشغال قلوبهم على هذه المدة القصيرة من الحياة، ولهذه المقدمة نتيجةٌ منطقيةٌ تترتب عليها، وهي الجهلُ بحقيقة المهمة التي خلقنا الله تعالى من أجلها، فنحن خلقنا الله عز وجل لغاية ما وكلفنا في هذه الحياة القصيرة بمهمة محددة.

---

(١) الإمام شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد الحبيب عبد الله بن علوي الحداد، **«سبيل الادكار والاعتبار بما يمر بالإنسان وينقضي له من أعمار»** ضمن سلسلة كتب الحداد (٥)، مطبوعات دار الحاوي للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

أما الغاية التي خلقنا من أجلها؛ فعامة المسلمين يعلمون أنها العبادة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، فالمقصدُ من خلقنا هو العبادةُ، وأما الوظيفة التي كلفنا بها في هذه الحياة الدنيا فهي الخلافة، بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[2]، ومِن ثَم فإن عبادةَ الله تعالى وأداء أمانة الاستخلاف في أرضه هما الغاية والمهمة اللتان ينبغي أن يفقهَ الإنسانُ بهما كيف يعامل ربه وكيف يعامل الخلق الذين يحيطون به فمعاملتنا مع الله تعالى تندرج ضمن أمر العبادة، ومعاملتنا مع ما يحيط بنا من الخلق تندرج ضمن مهمة الخلافة.

وإن تحقيق أمر العبادة، والقيام بمهمة الخلافة يحتاج الإنسان فيه إلى نموذج يتصف بالكمال، يرتبط ويقتدي به، ويتعلم منه كيف يعبد الله تعالى حق عبادته، وكيف يقوم بمهمة الخلافة.

* * *

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) البقرة: ٣٠.

۞ مفهوم الكمال المطلق ونموذج الكمال النسبي

إن غاية الإنسان أن ينال ما يكتب الله تعالى له، وأن يُحصّل ما يقدر الله سبحانه وتعالى له من معاني الكمال، وإذا نُسِب الكمالُ إلى الله عز وجل؛ فهو الكمال المطلق، ثم هناك كمالٌ نسبيٌّ بين البشر إمامُه ومظهرُه وقدوتُه ومنتهاه سيدُنا محمدٌ ﷺ، فهو صاحب الكمال البشري، ومنتهى الكمال النسبي، ومنه يُتصل بالحق عز وجل، طاعة ومحبة وتعظيماً لصاحب الكمال المطلق سبحانه وتعالى وحده لا شريك له.

معنى هذا الكلامِ أن كمالَ الإنسان يَبرزُ في رسوخ وِجهة قلبه إلى الله تعالى بالعبودية، وبناء وجهة قالَبه إلى الكون على أساس مفهوم أمانة الاستخلاف.

۞ نموذج الإنسان الكامل لدى النصارى

وهذا الأمر الذي يقودُنا إلى النظر في مفهوم نموذج الإنسان الكامل في النصرانية، ألا وهو سيدُنا عيسى ـ على نبينا وعليه أفضلُ الصلاة والسلام ـ وهو بلا ريبٍ كاملٌ، إلا

أن ما فهموه عنه وما نظروا إليه به من معاني الكمال هو محل النظر، فَهُم في تصورهم يرون أن كمال الإنسان في عبوديته لله تعالى أن يتخلّص من بعض غرائز بشريته بإطلاق، فلا يبقى له فعلٌ ولا اتصالٌ بشيء يرتبط بهذه الغرائز.

فمن أراد أن ينال كمال العبادة ـ عندهم ـ ينبغي أن يكون راهبًا منقطعًا عن الكثير من متطلبات غريزته، وقد رُفِع سيدُنا عيسى قبل أن يتزوج، ومن هنا كان استشكال نظرهم لمفهوم الإنسان الكامل، فليس للإنسان الكامل أن يتزوج لأن الزواج نوع من الاستجابة للشهوة، ولا يُنازع ولو في سبيل الحق لأن النزاع يؤدي إلى العداوة، ولا يمكن أن يتاجر، لأن التجارة تفضي إلى تغذية الطمعِ، والطمعُ كالشهوة والعداوة صفات سيئةٌ في النفس البشريةِ.

ولأن سيدَنا عيسى عليه السلام كاملٌ بلا شكٍّ وبلا ريبٍ؛ فإن الله عز وجل كتب أن يَنْزِلَ سيدُنا عيسى في آخر الزمان ويصلي مع المسلمين، ويتزوج ويقود الجيش، وبذلك يصحح معايير الكمال.

* * *

۞ دِلَالات الكمال

ومن دِلَالات مفهوم الإنسان الكامل عندنا أن «**الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ**»[1]، وأن «**الْمُؤْمِنُ الَّذِي يُخَالِطُ النَّاسَ وَيَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُمْ أَعْظَمُ أَجْرًا مِنْ الَّذِي لَا يُخَالِطُهُمْ وَلَا يَصْبِرُ عَلَى أَذَاهُم**»[2]، فالذي

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب القدر، ح (٢٦٦٤) (١٨٤/١٦ بشرح النووي، باب في الأمر بالقوة وترك العجز)، واللفظ له، وابن ماجه في سننه (١٣٩٥/٢)، كتاب الزهد، باب التوكل واليقين، ح (٤١٦٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

(٢) أخرجه الإمام الترمذي في سننه (٦٦٢/٤)، كتاب صفة القيامة، ح (٢٥٠٧)، والإمام ابن ماجه في سننه (١٣٣٨/٢)، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، ح (٤٠٣٢)، والإمام البخاري في الأدب المفرد ص (٩٩)، باب الذي يصبر على أذى الناس، ح (٣٨٨)، والإمام أحمد في مسنده (٦٤/٩) ح (٥٠٢٢)، واللفظ له، وسنده صحيح، ولا يضر إبهام الصحابي فيه، فالصحابة كلهم عدول، على أنه صرح بتسميته في رواية البخاري، وابن ماجه، وأنه ابن عمر، وفي المسند أيضًا (١٨٧/٣٨) ح (٢٣٠٩٨)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٧٠/١٣)، كتاب الأدب، ح (٢٦٧٤٤)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما. وقال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام ص (٢٨٦): أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن، وكذا قال في فتح الباري (٥١٢/١٠) عند شرحه لباب الصبر على الأذى، من كتاب الأدب.

يستطيع أن يجمع ـ بثبات واتزان ـ بين هذين الأمرين، هو الذي يسير نحو تحقيق معنى الكمال النسبي.

وقد جعل الله تعالى في فطرة الإنسانِ ميلاً إلى التأثر والاقتداء بغيره، وقد تتعددُ نماذجُ القدوةِ بحسَب ما يراه الإنسان مظهرًا للكمال في جانب منها، ولهذا أقام الله تعالى لنا سيدَنا محمدًا ﷺ قدوةً عظمى ومظهرًا لكل دِلَالات الكمال البشري في الأرض، وبه تزول أو تُتَخطَّى عقباتُ السير نحو الكمال، وإن جميع مراتب الكمال التي أُذِنَ للبشر أن يترقَّوا فيها تدور في فَلَكه ﷺ.

ولهذا جعله الله تعالى بشرًا، فهل صفة البشرية تلك تحديدٌ وتقييدٌ لمقام حضرته ﷺ، كما يفهمه بعض الناس الذين يعترضون على مدحه ووصفه بصفات تدل على الكمال البشري؛ فيقولون لنا: لا تبالغوا ولا تكثروا ولا تغالوا في مدحه، إنما هو بشر مثلكم، ويستشهدون ـ اجتزاءً ـ بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1]، وينسون ما للآية ذاتِها من صلةٍ وتكملةٍ تجمع دِلَالات منتهى الكمال البشريِ. والجواب

(١) الكهف: ١١٠، فصلت: ٦.

عن ذلك إنما يحتاج إلى تبيين معنى الآية الكريمة وما فيها من معان ودِلَالات.

۞ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ

يلاحظ في بداية الآية أن الله عز وجل قد أمر سيدنا محمداً ـ عليه وآله الصلاة والسلام ـ بقوله: ﴿قُلْ﴾، وهذا يدل على أن المسألة في حقيقتها أمر مهمة وبلاغ، ولو تأملنا فعل الأمر ﴿قُلْ﴾ في كلام الله عز وجل لوجدنا مناسبته غالباً تصُب في معانٍ لها صلةٌ بتربية الإنسان ونقله من الكفر إلى الإيمان، أو بترقيته داخل دائرة الإيمان في عبادته ونسُكِه وصلتِه القلبيةِ الخاصةِ بالله، أو في صلته بالخلق ما بين دِلَالةٍ وتنبيهٍ وحمايةٍ ودفعٍ للضر الواقع أو المتوقع.

وإذا تأملنا الأمر الرباني في معنى الرجوع إلى الله عز وجل، بقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾[1]؛ لوجدنا أن الله تعالى يقول لسيدنا محمد ﷺ: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾، وقد يتوقع بعض الناس أن يقول: قُل لِّعِبَادِيَ، وليس ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ﴾، فنحن لسنا بعبادٍ

(١) الزمر: ٥٣.

لسيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وإنما نحن عبادُ الله عز وجل، ومع ذلك قال له الله عز وجل قل يا عبادي، أي أن مقامَك بين عبادي دِلالةٌ علينا، وأن حالَك وكلامَك وفعلَك إنما هو خطابٌ مني إلى الخلق، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾[1].

ففي الأمر الرباني: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾[2]، أمورٌ ثلاثةٌ أمَرَ الله تعالى حبيبه ﷺ أمر مهمة وبلاغ ـ أن يقولها لنا:

* **الأمر الأول**: بشريته أي صورة المماثلة البشرية ﴿أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ بوصف الاتباع والاقتداء.

* **الأمر الثاني**: حقيقة الاختلاف عنا وهي الوحي والخصوصية ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ بوصف المحبة والاصطفاء.

* **الأمر الثالث**: وهو المهمة أي التوحيد ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ بوصف البذل والعطاء والفناء والبقاء والشمول والاستقصاء.

---

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) الكهف: ١١٠.

۞ حقيقة المهمة في معنى البشرية

فلسيدنا محمدٍ ﷺ صورةٌ بشريةٌ، كما أن له حقيقةً استثنائيةً اصطفاه الله سبحانه وتعالى وخصه لها وبها، فأما الصورةُ البشرية فمثلُنا وسائر البشر في عمومها، أما في دقائقها فلا يوجد أحدٌ في جمال صورته[1]، ولا في كمالها، ولا في حسن تصرفِ هذه الصورة، ثُم جعل الله عز وجل له

---

(١) ذكر الإمام البيهقي في دلائل النبوة: «عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عِمْرَانَ عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ: أَنَّهُ سَأَلَ عَلِيًّا، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ نَعْتِ النَّبِيِّ، ﷺ، فَقَالَ: كان رسول الله أبيض اللون مشرب حمرة أدعج العينين سبط الشعر ذو وفرة دقيق المسربة كأن عنقه إبريق فضة من لبته إلى سرته شعر يجري كالقضيب ليس في بطنه ولا صدره شعر غيره شثن الكف والقدم إذا مشى كأنما ينحدر من صبب وإذا مشى كأنما يتقلع من صخر وإذا التفت التفت جميعاً كأن عرقه اللؤلؤ ولريح عرقه أطيب من المسك الأذفر ليس بالطويل ولا بالقصير ولا العاجز ولا اللئيم لم أر قبله ولا بعده مثله».
أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ، ١/٢٧٣)
وانظر ما ورد عن سيدنا البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ وَجْهًا، وَأَحْسَنَهُ خَلْقًا، لَيْسَ بِالطَّوِيلِ الْبَائِنِ، وَلَا بِالْقَصِيرِ». أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٥١٦)، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، ح (٣٥٤٩)، واللفظ له، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، ح (٢٣٣٧) (١٥/٧٧ بشرح النووي، باب في صفة النبي ﷺ).

في كل مظهرِ صورٍ يماثلنا فيه نوعا من التميّز ومن الاختصاص ؛ تميزٌ في كمال مظهر هذه الهيئة الصورية ، حتى إنه لَتصيبُك الحَيْرةُ إن جئت تَصِفُه من أي جانب وسبيل ، وهي الهيئة التي حرصت كتب الحديث والسيرة والشمائل على إيراد تفاصيلها ودقائقها .

وقد غابت عن أذهان بعض الناس حقيقة التميز والاختصاص في الصورة البشرية الكاملة لسيدنا محمد ﷺ ، فجعلوا يتساءلون عن جدوى معرفة أوصاف النبي الخَلْقِيَّة ، معتقدين أن الحديث عن هيئته ﷺ وعن أوصاف الكمال في صورته البشرية لا يفيد المسلمين في العبادة والاتباع ، وللبيان نقول لهم: من الذي نقل إلينا تلك الأوصافَ؟ ومن أين عَرفناها؟ ألم تُنقل لنا على ألسنة الصحابة ، ومن بعدهم التابعين ، ثم تابعي التابعين ، ثم أئمةِ الحديث حتى وصلت إلينا؟

فلِمَ اعتنى كلُّ هؤلاءِ بتفقد أخبار وصفه الخَلْقِي ، إن لم تكن هناك فائدةٌ من ذلك الوصف؟ ولماذا يؤلف الأئمة الترمذي صاحبُ السنن والمفسر البَغَوي والمحدث المُنَاوي والفقيه النبْهاني وغيرُهم كُثر كتبًا يخصصونها لشمائل الرسول

عليه الصلاة والسلام؟ بل لماذا يخصصُ كبارُ الأئمة الذين كتبوا السيرةَ والذين جمعوا الحديثَ فصولاً وأبوابًا في شمائل النبي ﷺ وأوصافِه الخَلْقِيَّة؟

إذًا هناك معنى ينبغي أن نفقَهَهُ من خلال صفاته الخَلْقِيّة ﷺ، وهذا المعنى يعود على القلوب بالإعجاب به وبالمحبة لحضرته المشرفة والإجلالِ لقدره والتعظيم لمنزلته ﷺ، وبهذا المعنى نفهم المهمةَ التي جعله الله تعالى بسببها في صورةٍ خَلقيَّةٍ كاملة، وهذه المهمةُ ترجع إلى أمر يتصل بالواقع الذي نعيشُه في باب الخلافة، وهي مُهِمّة القدوةِ التي بدونها لا نستطيعُ أن نفهمَ كيف نتعاملُ مع الله ومع خلق الله تعالى.

فمن المعلوم أنه من مقتضى الصورة البشرية لسيدنا محمد ﷺ أنه يأكلُ ويشربُ وينام ويتزوج ويُتَاجر ويرعى الغنمَ ويغزو ويقاتلُ مثل سائر البشر، وقد كانت مظاهر الاشتراك في تلك الصورةِ البشريةِ عند الذين احتُبِسوا على حدودها سببًا في عدم إيمانهم ـ بل كانت حجةَ تكذيب وعدمِ تصديقِ كل رسول ونبي، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ

﴿ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1] ـ لأنه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾[2]، فهذا هو الذي نظروه منه.

وكذلك الحال عند الذين يُحتبَسون على مجرد التماثل والاشتراك في الصورةِ البشريةِ لسيدنا محمد ﷺ ويقِفون عندها من المؤمنين، فلا يرتقُون في إيمانهم، بل قد يعيشون محجوبين ـ والعياذ بالله ـ عن الفَهم الصحيح لمعنى بشريته ﷺ الذي يترقَّون به في معراج صلتهم بالله سبحانه وتعالى.

لذا لا تجدُ لدى الذي يُشغَل دائمًا ويقِف عند حدود ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾؛ ذلك الذوقَ الإيمانيَّ من الرحمة والصبر والثبات واللين، ولك أن تتأمل الطوائفَ التي ظهرت بين المسلمين وديدَنُهم الاكتفاءُ بالكلام عن بشريته عليه الصلاة والسلام؛ لتجد عندهم ـ في الأغلب الأعم ـ الفظاظةَ

---

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) الفرقان: ٧.

والشدةَ، لأن معنى المحبة عندهم ضيقٌ محصورٌ على الاتباع الصوري، ولا يغوصُ إلى حقيقة المعاني القلبيةِ.

۞ مفتاح التميز في الارتباط بالكامل

إن المِفْتاح لسرِّ تَميز إنسانيةِ الإنسان هو في ارتباطه بالإنسان الكاملِ القدوةِ ﷺ، ومِن ثَمَّ فالمقصودُ من مجيئه في هذا القالَب البشري الذي فيه صورةٌ مشابهةٌ لنا أن يكمل لنا وأمامنا جانب الاقتداء، فكيف نقتدي به - ﷺ - إذا كان لا يأكل كما نأكل ولا يمشي في الأسواق كما نمشي ولا يتزوج كما نتزوج؟ وكيف يتأتى لنا أن نتعلم كيف نتصل بالله تعالى - اقتداء - في كل أحوالنا لولا كمال سيدنا محمد ﷺ في صلته بربه عز وجل؟ وقِس وفصِّل على ذلك جميعَ أحوالنا وأقوالِنا وأفعالِنا ونوازعِ بشريتنا.

أَصْدُقُكم القولَ بناء على ما سبق أنه لولا وجودُ هذا الجانبِ البشري في سيدنا محمد ﷺ لضللنا الطريق؛ إما أن نعتزل الناس فنكونَ رهبانًا في صوامعَ وبِيعٍ دون اتصال بالعالم، وإما أن نتصل بالعالم بغير نور وهداية وقدوة، فنسقطَ في هاوية الجشع والحقد والشبق ولا نكونَ أصحابَ

مراتبَ عاليةٍ في الصلة بالله تعالى.

فلو افترضنا أن النبي ﷺ كان لا ينام؛ فسيكون نومُنا نحن عندئذ ـ على خلاف هديه عليه الصلاة والسلام ـ انقطاعًا عن الله عز وجل؛ يُخل بمهمة العبادة، ويخل بالتالي بمهمة الخلافة في الأرض، على نحوٍ قد يدفعُنا إلى أن نجاهد أنفسنا بتقليل النوم إلى الحد الذي قد لا ننام فيه أبدًا مخالفةً للفطرة، فنَضعُف وننعزلُ عن معاملة الخلق فلا نؤدي دور الخلافة وإن حققنا نجاحاً في جانب من العبادة. لكن كان سيدُنا محمدٌ ﷺ ينام، فكان في مظهر صورته البشرية في نومه وسيلةً لنا لأن يتحول نومُنا إلى عبادة من جهة الآداب النبوية للنوم، وإلى خلافة في هذه الأرض من جهة أخرى، وهي نية التقوي على الطاعة وتجدد النشاط والهمة للخدمة.

وقد تزوّج ﷺ، وكان في زواجه عِبرٌ لنا ودروسٌ في كيفية التعامل والتنشئة في البيت، وكيفيةِ التعايش بين الرجل والمرأة، ولولا ذلك ما كمل للرجال معنى الصلة بالله عز وجل في صلتهم بنسائهم، ولا كمل للنساء معنى الصلة بالله عز وجل في صلتهن برجالهن.

فلو تأمل الإنسان صلةَ النبي ﷺ بالسيدةِ خديجةَ زوجته الأولى رضي الله عنها؛ لوجد فيها المثلَ الأعلى للمرأة في تحقيقها لرتبة الكمال عند ما تتعامل مع الزوج وبخاصة في أشد لحظات الابتلاء والتعب.

تأمل موقف السيدة خديجة رضي الله عنها في بداية الوحي وبشارتها بخصال الخير حين قال لها ﷺ في أول أمر الوحي «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت: «**كَلَّا وَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ**»[1].

وإذا رأيتم سيدتَنا الصديقةَ عائشةَ رضي الله عنها وتأملتم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدء الوحي، ح(٣) وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، ح (١٦٠).

وانظر حديث أبي هريرة قال: «**أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ**»، أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها، ح (٣٨٢٠) واللفظ له، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب في فضائل الصحابة، باب فضائل خديجة رضي الله عنها رقم ٢٤٣٢).

سيرتها مع النبي ﷺ، لوجدتم مثال الزوج الحنون والرجل الكامل، فالسيدةُ عائشةُ رضي الله عنها على صغر سنها يحصُل منها ما يحصل من صغيرات السن من الغضب أو من الانفعال أو من التسرع في بعض الأمور، فأرانا النبي ﷺ بحسن تفهمه وتعاملاته الراقية واستيعابه لانفعالاتها كيف يكون الرجل كاملاً في تعامله مع أهله.

فعَنْ السيدة عَائِشَةَ قَالَتْ: «خَرَجْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ وَأَنَا جَارِيَةٌ لَمْ أَحْمِلْ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ، فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ فَسَكَتَ عَنِّي، حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَقَالَ لِلنَّاسِ: تَقَدَّمُوا فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَيْ حَتَّى أُسَابِقَكِ فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِي، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يَقُولُ هَذِهِ بِتِلْكَ»[1].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣/٢٤٩)، كتاب الجهاد، باب السبق على الرجل، ح (٢٥٧١)، والنسائي في سننه الكبرى (٥/٣٠٣، ٣٠٤)، كتاب عشرة النساء، مسابقة الرجل زوجته، ح (٨٩٤٢، ٨٩٤٤)، وابن ماجه في سننه (١/٦٣٦)، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، ح (١٩٧٩)، والإمام أحمد في مسنده (٤٣/٣١٣) ح (٢٦٢٧٧)، واللفظ

وفي كلتا الحالتين تعليم للرجل كيف يكون كاملاً عند ما تحتاج الزوجة إلى من يستوعبُها أو يحسن التعامل معها، وتعليم الزوجة كيف تكون راقيةً وكاملةً عند ما يحتاج الرجل من زوجته أن تقوم بحسن التعامل معه أو مدِ يد العون له، ولو أن سيدنا محمداً ﷺ لم يتزوجْ، أو لم يكن بشرًا يحتاج إلى الزواج؛ لَمَا تأتَّى لنا أن نتعلم كيف نتّصِل بالله تعالى في شؤون حياتنا الزوجية والأسرية التي نعيشها في الواقع، وهكذا يقال في جميع أحوال الحبيب ﷺ.

۞ الخصوصية في الصورة البشرية

إن الصورة البشرية لسيدنا محمد ﷺ تتميز عن غيره من البشر بنور الخصوصية، وهذه الخصوصية لها وجهان:

أحدهما: لا يطمع أحدٌ من الخلق أن ينالَه، وهو اختيارُ اللهِ تعالى لسيدنا محمد ﷺ، وعطاؤُه واصطفاؤُه وإجلالُه له، فهذا وجه لا يطمع أحدٌ من البشر في بلوغه أو أن يصل إليه.

تأمل حينما صام عليه وآله الصلاة والسلام مثلَ الصحابةِ

له، وابن حبان في صحيحه (١٠/٥٤٥ ح٤٦٩١ بترتيب ابن بلبان)، كلهم من طريق: هشام بن عروة، عن أبيه، عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

وأفطر، لكن لما واصل أراد الصحابةُ رضي الله عنهم أن يواصلوا فنهاهم، «رَحْمَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ»[1]، فبين لهم ﷺ أن في وصاله خصوصية لا يتمكنون من نيلها.

وكذلك خصوصيته ﷺ جواباً عن سؤال السيدة عائشة رضي الله عنها: يَا رَسُولَ اللهِ تَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟، قَالَ: «تَنَامُ عَيْنِي وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»، أو كما في حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّهُ بَاتَ عِنْدَ خَالَتِهِ مَيْمُونَةَ، «فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ اللَّيْلِ، فَتَوَضَّأَ مِنْ شَنٍّ مُعَلَّقٍ وُضُوءًا خَفِيفًا، قَالَ: وَصَفَ وُضُوءَهُ، وَجَعَلَ يُخَفِّفُهُ وَيُقَلِّلُهُ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقُمْتُ فَصَنَعْتُ مِثْلَ مَا صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ، ثُمَّ جِئْتُ فَقُمْتُ عَنْ يَسَارِهِ، فَأَخْلَفَنِي فَجَعَلَنِي عَنْ يَمِينِهِ، فَصَلَّى، ثُمَّ اضْطَجَعَ فَنَامَ حَتَّى نَفَخَ، ثُمَّ أَتَاهُ بِلَالٌ فَآذَنَهُ بِالصَّلَاةِ، فَخَرَجَ فَصَلَّى الصُّبْحَ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٢/٤٩)، كتاب الصوم، باب الوصال، ح (١٩٦٤)، واللفظ له، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الصوم، ح (١١٠٥) (٧/١٧٨ بشرح النووي، باب النهي عن الوصال في الصوم)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

وَلَمْ يَتَوَضَّأْ " قَالَ سُفْيَانُ: وَهَذَا لِلنَّبِيِّ ﷺ خَاصَّةً، لِأَنَّهُ بَلَغَنَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ، تَنَامُ عَيْنَاهُ، وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ»[1].

وهي خصوصية تعلمنا منها أنه كان ـ عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام ـ ينام ونحن ننام، وأن حدودَ أخذنا من نومه هي صورةُ الاقتداء في الآداب والنيات الصالحات، لكن هناك بابًا ممتنِعًا لا ينالُه إلا سيدُنا محمدٌ، إذ يقول: «تَنَامُ عَيْنِي وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»[2]، فهي خصوصية ممتنِعةٌ على غيره.

وثَم وجهٌ آخرُ في الخصوصية ـ سوى تلك التي تمتنعُ عن غيره ـ وهي اختصاصاتٌ يُفيضها الله تعالى على أفراد الأمة على قدر صلتهم بسيدنا محمدٍ ﷺ، وهذه الاختصاصاتُ

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه، (٣٩/١)، كتاب الوضوء، باب التخفيف في الوضوء، ح (١٣٨)، والإمام مسلم في صحيحه، (٥٢٨/١)، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ح (١٨٦) واللفظ له.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٥٢٠/٢)، كتاب المناقب، باب كان النبي ﷺ تنام عيناه ولا ينام قلبه، ح (٣٥٦٩)، واللفظ له، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، ح (٧٣٨) (١٥/٦ بشرح النووي، باب صلاة الليل)، من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

والعطاءاتُ تبدأ من باب اقتداءِ الظاهر ببشريته ﷺ، وامتلاءِ الباطن بخصوصيته ﷺ، فلكي نعيشَ حياةً مرتبطةً بالله تعالى علينا أن نقتدي بسيدنا محمد ﷺ في كل شؤون حياته، ففي ظاهره نعيش مع بشريته اقتداءً، وفي باطنه نعيش مع خصوصيته محبةً وولاءً وتعظيمًا.

۞ كمال الإيمان بمحبة سيد الأكوان

ولهذا لا يَكمُل الإيمانُ إلا بكمال محبة سيدنا محمدٍ ﷺ، كما جاء في الحديث الصحيح عن أنس بن مالك: «**لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**»[1]، ويأتي سيدنا عمر رضي الله عنه الصادق فَيقول: «**وَاللَّهِ لَأَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ**

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٢٢/١)، كتاب الإيمان، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان، ح (١٥)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ح (٤٤) (١٤/٢ بشرح النووي، باب وجوب محبة رسول الله أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين)، واللفظ لكليهما، من حديث أنس رضي الله تعالى عنه.

عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ، قَالَ عُمَرُ: فَلَأَنْتَ الْآنَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ»[1].

فهذا سيدُنا عمرُ رضي الله عنه وأرضاه وله مناقب وفضائل كثيرة، أعز الله عز وجل الإسلام بإسلامه، وكان من أعظم الناس اتباعاً للنبي ﷺ، هاجر وجاهد في سبيل الله تعالى، صام النهار وقام الليل، وإن كل هذا الاتباع والبذل والعطاء لم يكمل به إيمانه، حتى صار النبي ﷺ أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه.

إذًا هناك معنىً في المحبة ليس مجردَ صورة الاتباعِ، فالاتباعُ لا يثمر حقيقةَ المطلوب منه إلا إذا غُرس في أرض المحبة، والاتباع شجرةٌ لك أن تَغرِسَها في أرض المحبة ولك أن تغرسَها في أي أرض أخرى؛ فإذا غُرِسَ الاتباعُ في غير أرض المحبة لا يصل بصاحبه إلى كمال الإيمان أيا كان هذا الاتباعُ في صورته وشكله.

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٤/٢١٦)، كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، ح (٦٦٣٢)، والإمام أحمد في مسنده (٢٩/٥٨٣) ح (١٨٠٤٧)، واللفظ له، من حديث عبد الله بن هشام رضي الله تعالى عنه.

والمحبة أصلٌ في الباطن وبها يميل القلب إلى المحبوب، فإذا زادت المحبةُ أخذت بكُلّيات المُحِب إلى المحبوب، حتى إذا اكتملت وصارت أقوى من محبة النفس، فإنها تثمر عند المحب ثلاثةَ أمور هي الأساسُ فيما نحتاجه اليومَ في إقامة الخلافة في الأرض: أولها: الاتباع، وثانيها: الخدمة، وثالثها: البذل، وإن مراتبَ الناس لتتفاوت في هذه الأمور الثلاثة على قدر تفاوتهم في المحبة، فكلما كملت المحبةُ وقوِيَت في الباطن قَوِيَ الاتباعُ والخدمةُ والبذلُ في الظاهر.

وفي معنى المحبة بكونها من شأن الباطن، نفهم قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾[1]، وقوله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ عِنْدَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ نَفْسِهِ»[2]، و لو تأملنا الآية جيداً لوجدنا

---

(١) آل عمران: ٣١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، باب كيف كانت يمين النبي ﷺ، (٥/١٦ (٣٦٩٤) و٨/٧٣ (٦٢٦٤) و٨/١٦١ (٦٦٣٢)، من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه برواية: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: «يَا رَسُولَ اللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ=

أن الله عز وجل ربط دلائل محبته تعالى باتباع رسوله ﷺ، فلم يقل تعالى اتبعوا سنتي أو شريعتي أو هديي أو كلامي فقط، وإنما قال اتبعوني أي بكُلّيتي، وهذا الاتباع يشمل المتابعة في الظاهر والموافقة في الباطن.

۞ سريان أنوار الخصوصية عند الاتصال بالبشرية

فكيف يقوم هذا المعنى الباطنُ للمحبة؟ إنه يقوم بمشاهدةِ معنى الخصوصية ومتابعتها في سيدنا محمدٍ ﷺ، وقد قرأتم آنفاً أن الاقتصارَ على المماثلة البشرية كان سببًا في رد الكفار عن الإسلام، وفي جمود بعض المسلمين عن الترقي في مراتب الإيمان والإحسان، فما الفرق بين الذين لا ينظرون من النبي ﷺ إلا جانبَ بشريته فقط وبين أبي جهل وأبي لهب؟ فأبو جهل وأبو لهب نظرا في سيدنا محمد - ﷺ - إلى يتيم أبي طالب، وابن أبي كبشة[1] وإلى صورة

= شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ وَاللهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: الْآنَ يَا عُمَرُ» وأخرجه أحمد في مسنده، ٤/٢٣٣ (١٨٢١١) و٤/٣٣٦ (١٩١٦٩) واللفظ له.

(١) أبوه من الرضاع.

البشر الذي يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

لكن المؤمن يأخذ معنى البشرية وجانبَها ليتصل بمعنى الخصوصية وجانبِها، فمن شأن المؤمن المحب أن يقول: يا رسول الله لقد اتبعتُك في كلياتِك: فشربي على هيئتك؛ وطعامي على آدابك وسنتك؛ ولباسي ونومي، قيامي وقعودي؛ رضاي وغضبي، حبي وبغضي؛ حياتي كلُّها ارتبطت بك. فما ثمرة ذلك كُلِّه؟

إن الثمرةَ إذا اتبع المؤمن المحب سيدنا محمداً ﷺ على هذا النحو من الإجلال والتعظيم وتغليب الأمر على نفسه مع الصدق والإخلاص هي أن تسريَ إليه أنوارُ الخصوصية، فإن اقتدى المؤمن في بشريته ببشرية النبي ﷺ سرى إلى قلبه شيءٌ من نور خصوصيته عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام.

ولهذا أسألكم من هم أفضلُ الخلق بعد الأنبياء؟ إنهم بلا شكٍّ الصحابةُ رضي الله عنهم أجمعين، لكن ما مِيزةُ الصحابة؟ ألا يوجد من التابعين من هو أعلمُ أو أعبدُ من بعض أعراب الصحابة، فمن أعلم من الحسن البصري؟ ومن

أعبد من ثابتٍ البُنَانيِّ الذي كان يقرأ القرآن ويصلي ثلاث مائة ركعة كل يوم وليلة[1]؟

لقد أوردت لنا كتب السنة قصة الأعرابي الذي جاء يسأل الرسول عليه الصلاة والسلام عن الفرائض، وقد حفظ لنا الصحابةُ رضي الله عنهم أجمعين وصفَه وحالَه، كما في صحيح البخاري: مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ، حَتَّى دَنَا فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَصِيَامُ رَمَضَانَ»، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ قَالَ: «لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»، قَالَ وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ الزَّكَاةَ، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «لَا إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ»، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ وَاللهِ لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»[2]، وفي رواية أخرى: قَالَ النبي

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٥/٢٢٤ برقم ٩١، صفة الصفوة لابن الجوزي، ٣/٢٦١ برقم ٥١٥.

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (١/٣١)، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، ح (٤٦)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه،=

- ﷺ - «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»[1].

أي أفضل عندنا - أهلَ السنةِ والجماعة -: ثابتٌ البُنانيُّ صاحبُ العبادة، والحسنُ البصري صاحبُ العلم وهما قدوة لنا في كل الأحوال، أم هذا الأعرابي الذي يكتفي بالفرائض وتركِ المحرمات؟

الإجابة عندنا أن هذا الأعرابيَّ أفضلُ، لأن فيه خصوصيةَ الصحبة، فما خصوصيةُ الصحبة؟ وما ميزة الصحابة؟ إن الفرق بين الصحابي وغيره من المسلمين أنه اجتمع بسيدنا محمدٍ ﷺ، فهذا هو ضابط الصحبة، ولذلك قالوا: الصحابي هو من اجتمع بالنبي ﷺ في حياته يقظةً وهو مؤمن ومات على الإيمان.

= كتاب الإيمان، ح (١١) (١٤٦/١ بشرح النووي، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام)، واللفظ له، من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه.

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٤٣١/١)، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ح (١٣٩٧)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، ح (١٤) (١٥٣/١ بشرح النووي، باب بيان الإيمان الذي يدخل به الجنة)، واللفظ لكليهما، من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

ذلك لأنهم ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ لما نظروا إلى هيئته البشرية عليه وآله الصلاة والسلام واكتحلت أعينهم بالنظر إلى طلعته البهية وأنصتت مسامعهم وانطلقت ألسنتهم بالخطاب منه صلوات ربي وسلامه عليه؛ اتصلت بشريتُهم ببشريته في أعلى مراتب الاتصال المباشر، فاتصلت قلوبُهم بأنوار خصوصيته ﷺ.

۞ على قدر مراتب الاتصال والفهم تُنال الدرجات

ومعلوم أن أدنى رتبة من فَهْم الخصوصية أن يشهد المسلم لسيدنا محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، حتى لو لم يعلم الخصوصياتِ الأخرى والمراتبَ العاليةَ والاصطفاءاتِ التي خصّه الله عز وجل بها، فأول درجة نضعُها في الإقرار بالخصوصية أن نُقِر له عليه الصلاة والسلام بالنبوة والرسالة، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين وأفضل الخلق، ثم بعد ذلك تختلف مراتب الناس في فَهم تلك الخصوصيات.

وقد يأتي أعرابي لا يعرف شيئًا عن خصوصيات النبي ﷺ إلا أنه رسولُ الله ـ كما في صحيح مسلم عَنْ أَنَسِ بْنِ

مَالِكٍ قَالَ: «نُهِينَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - عَنْ شَيْءٍ، فَكَانَ يُعْجِبُنَا أَنْ يَجِيءَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ الْعَاقِلُ فَيَسْأَلَهُ وَنَحْنُ نَسْمَعُ فَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ أَتَانَا رَسُولُكَ فَزَعَمَ لَنَا أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ، قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ السَّمَاءَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ خَلَقَ الأَرْضَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَمَنْ نَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ وَجَعَلَ فِيهَا مَا جَعَلَ؟ قَالَ: «اللَّهُ». قَالَ: فَبِالَّذِي خَلَقَ السَّمَاءَ وَخَلَقَ الأَرْضَ وَنَصَبَ هَذِهِ الْجِبَالَ آللَّهُ أَرْسَلَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا زَكَاةً فِي أَمْوَالِنَا؟ قَالَ: «صَدَقَ»، قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي سَنَتِنَا. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: فَبِالَّذِي أَرْسَلَكَ آللَّهُ أَمَرَكَ بِهَذَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: وَزَعَمَ رَسُولُكَ أَنَّ عَلَيْنَا حَجَّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً. قَالَ: «صَدَقَ». قَالَ: ثُمَّ وَلَّى. قَالَ: وَالَّذِى بَعَثَكَ بِالْحَقِّ لاَ أَزِيدُ عَلَيْهِنَّ وَلاَ أَنْقُصُ مِنْهُنَّ. فَقَالَ

النَّبِيُّ - ﷺ - «لَئِنْ صَدَقَ لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ»[1].

وواضح أن هذا الأعرابي لا يعرف من خصوصيات النبي ﷺ سوى أنه رسول الله، فسأله واستوثق من هذه الناحية فعاد مُقرًا بأول رتبة من مراتب الفهم ليشهد قلبُه وباطنُه معنى الخصوصية في سيدنا محمدٍ ﷺ، فنال بشارته بالجنة إن صدق في عزم الالتزام.

وهذا يعنى أن أقلَّ الصحابة عملاً قد أخذ بدايةَ مقدمات الإيمان بالخصوصية حين قابلت بشريتُه بشريةَ الرسول - عليه الصلاة والسلام - فسرى من نور خصوصيته إلى بشريته ما وصل إلى بشريتهم، ثم إلى قلوبهم من اعتقاد خصوصيته فنالوا بذلك الاتصال الرتبة الكبرى.

وإذا تأملنا هذا المعنى اتضح لنا انطباعُ الخصوصيةِ المحمديةِ في القلوب، وأن نصيبَنا من خصوصية سيدنا محمد ﷺ يكون على قَدْر ارتباط قلوبنا بمحبته، وأن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان باب في بَيَانِ الإِيمَانِ بِاللهِ وَشَرَائِعِ الدِّينِ، ح (٣٢/١) واللفظ له، وأحمد في مسنده ١٤٣/٣ (١٢٤٨٤)

الصحابة الذين شاهدوا عجائبَ من خصوصياته تلك، ورأوا معجزاتِه وأخلاقَه وتعاملاتِه ورحمتَه، وعاينوا هِمتَه وتواضعَه وزهدَه، شهدوا كل تلك المعاني من سيدنا محمد ﷺ وامتلأوا بها، وكان تفاوت مراتبهم في الأفضلية وبالتالي في الإيمان على قدر تفاوت مراتبهم في الفهم عنه.

يظهر ذلك جلياً في إبرازه ﷺ لأفضلية الصديق أبي بكر عند ظهور معنى من الفهم تمَيز به عن بقية الصحابة، فقد روى البخاري عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: «خَطَبَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: مَا يُبْكِي هَذَا الشَّيْخَ إِنْ يَكُنْ اللهُ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ، فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْعَبْدَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ أَعْلَمَنَا، قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ لَا تَبْكِ إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَمَوَدَّتُهُ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلَّا سُدَّ إِلَّا بَابُ أَبِي بَكْرٍ»[1].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ الْخَوْخَةِ وَالْمَمَرِّ فِي الْمَسْجِدِ، (١/١٠٠) ح (٤٦٦) وطرفاه في ٣٦٥٤ و٣٩٠٤

۞ سريان الخصوصية إلى الزمان والمكان

بل لقد سرت أنوارُ خصوصيته عليه الصلاة والسلام إلى ما اتصل بحضرته من الزمان والمكان، ففُضلت بعضُ الأوقات على غيرها لاتصالها بالحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[1]، وفُضلت البلدةُ التي ولد ونشأ فيها ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾[2]، والبلدة التي هاجر إليها وثوى فيها، وقد كانت وبيئةً لا يؤمن فيها من الوخم والمرض، فصارت بعد أن حل بها وتطيبت بالطيب ﷺ طيبة وطابة، حتى إننا لَنجدُ النهي في الحديث عن تسميتها يثرب، واستحسن بعضُ العلماء أن يستغفر الإنسان إذا نطق بكلمة يثرب عند ذكره للمدينة المنورة، عملا بما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ فَضَائِلِ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، (٢/٩٣٨) ح (٢٥٠٩)، مسلم في صحيحه، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، (٤/١٩٦٢) ح (٢٥٣٣) عَنْ عَبِيدَةَ عَنْ عبد اللهِ رضِيَ اللهُ عنه.

(٢) البلد: ١ ـ ٢.

في مسند أحمد عَنِ الْبَرَاءِ قَال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَمَّى الْمَدِينَةَ يَثْرِبَ فَلْيَسْتَغْفِرْ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ هِيَ طَابَةُ هِيَ طَابَةُ»[1].

هذا المعنى إذا ارتقى إليه المسلم وعرَف أنه حتى في بشريته ﷺ تلك لم تكن هناك مماثلةٌ، أدرك معنى آخرَ يرتقي إليه في صلته بالحبيب عليه الصلاة والسلام، وهو سر الوحي الذي تلقّاه قلبُ الحبيب ﷺ.

ولذا فإننا نحتاجُ إلى أن نقرأ كتبَ الشمائلِ والدلائلِ والسيرةِ، ثم ندخلَ إلى السنة ببحرها الواسع لنستشعر بها ارتباطًا قلبيًا بسيدنا محمد ﷺ، فإذا قوِيَ هذا الارتباطُ كمل الإيمان، وإذا كمل الإيمان أخذنا نصيبًا من سر الوحي

---

(١) ورد هذا المعنى في حديث في إسناده ضعف في مسند الإمام أحمد (٤٨٣/٣٠) ح (١٨٥١٩) عن البراء بن عازب رضي الله عنه، وله شاهد عند الشيخين في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بِقَرْيَةٍ تَأْكُلُ الْقُرَى، يَقُولُونَ: يَثْرِبُ، وَهِيَ المَدِينَةُ، تَنْفِي النَّاسَ كَمَا يَنْفِي الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ». أخرجه الإمام البخاري في كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، ح (١٨٧١) (٢٢/٢). وأخرجه الإمام مسلم في كتاب الحج، ح (١٣٨٢) (١٣٠/٩ بشرح النووي، باب المدينة تنفي خبثها).

الذي وُجِّه إلينا بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾.

۞ فَهْمُ حقيقةِ معنى التوحيد واتصالها بالحبيب

وعند التأمل في الآية الكريمة يتبين أنه سبحانه عز وجل لم يقل: أَنَّمَا إِلَهي إِلَهٌ وَاحِد، وإلا لكان هناك انفصالٌ بين فَهم التوحيد من جهة، وبين الحالة القلبية من جهة أخرى، أو قل بين السلوك من ناحية والواقع الذي نعيشه من ناحية أخرى، وهذه أزمة يعيشها بعضُ من يخدُمُ الإسلام اليوم ولم يتسع لهذا الفَهم، فالبعض يفصل التوحيد عن الحياة، ليقول لنا: هذا شركٌ وهذا منافٍ للإيمان وهذا من وسائل الشرك وهذا قد يُفضي إلى الشرك وهذا من مقدمات الشرك، حتى حولوا الصلة بالحياة كلِّها إلى صورة ألفاظ تتكلم عن الاعتقاد والتوحيد والإيمان.

لكن الفقه الذي جاء به سيدُنا محمدٌ ﷺ لم يكن هكذا، وما كان لأحد من الصحابة أن يقسم التوحيد إلى ربوبيةٍ وألوهيةٍ ولا إلى أسماءٍ وصفاتٍ، و لم نجد ذلك مروياً عن الصحابة والتابعين ولا عن تابعي التابعين وما

حُفظ ذلك عنهم، لأنهم كانوا مشغولين بحقيقة التوحيد في القلوب، والتي أخذوها بلا إله إلا الله واقترانها بمحمد رسول الله، فتأملوا لماذا جعل الله تعالى دخول الإسلام مشروطًا بالشهادتين؟ لأن التوحيد لا يتحول إلى حقيقةٍ في قلبك إلا عَبْر هذا الذي جعله الله عز وجل لك إمامًا وقدوةً لمعنى الإنسان الكامل.

فإذا اعتقد الإنسان أن محمداً ﷺ رسولُ الله إليه؛ ترتبت على هذا الاعتقادِ والتصديقِ بكلامه المحبةُ له والارتباطُ بحضرته، وأن يجعل لحياته ارتباطًا به، وإذا جعل لحياته ارتباطًا به؛ عرف معنى التوحيد بحق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ﴾، أي أن الخطابَ لكم، وأن الوحيَ الذي جاء إليه متصلٌ بمعنى المخاطبة المتوجهة إلى الغير، وأنه بدون الارتباطِ بالاقتداء الظاهرِ ببشرية سيدنا محمد ﷺ والامتلاءِ الباطن بخصوصية سيدنا محمد عليه وآله الصلاة والسلام؛ يمتنعُ أمرُ رسوخِ حقيقةِ التوحيد في القلوب.

ولذا لم يكن يسمى بعلم التوحيد ولا بعلم العقيدة، فهذا كلُّه ظهر بعد القرون الأولى ولا مشاحَّةَ في الاصطلاح،

وإنما كان يسمى الإيمانَ، ثم سمي بالتوحيد لأن أعظم ما يوصل الإيمان إلى القلب هو التوحيد، وسمي بالعقيدة لأنه ينعقد الإيمان به في الباطن، لكن الأصل هو إيمانٌ أي رسوخٌ في القلب مرتبطٌ بتعظيمِ ومحبةِ سيدنا محمد عليه وآله وصحبه الصلاة والسلام والارتباطِ بحضرته.

وهكذا فإن أعظمَ من تلقى التوحيدَ عن سيدِنا محمدٍ ﷺ هم الصحابةُ الكرام رضي الله عنهم أجمعين، لأن توحيدَهم جمعهم على امتلاء قلوبهم بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، حتى صار الواحد منهم يُسابق أخاه على فضلة وَضُوئه ﷺ[1].

فهذه كلُّها أشياءُ نحتاج إلى أن نذكرها لأجل أن نعرف الفرقَ الكبيرَ الذي بيننا وبين الصحابة رضوان الله عليهم في

---

(١) ورد ذلك في حديث المِسْور بن مَخْرمة ومروان بن الحكم يصدق كل واحد منهما حديث صاحبه الذي أخرجه البخاري في صحيحه (٢/٢٧٩)، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب وكتابة الشروط، ح (٢٧٣١)، وفيه قول عروة بن مسعود الثقفي: «وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ وَمَا يُحِدُّونَ إِلَيْهِ النَّظَرَ تَعْظِيمًا لَهُ».

الصلة بسيدنا محمد ﷺ، هذا الفرقَ الذي جعلهم يكادون يقتتلون على فضلة الوضوء، لأن نظرَهم إلى بشرية سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام غيرُ النظر الذي يُراد له الآن أن ينتشر بين المسلمين.

۞ ارتباط الرسالة بالرسول والمهمة بالمحبة

وينبغي في هذا الجانب تسليط الضوء على صنفين من الفهم لحقيقة ارتباط الرسالة بالرسول والمهمة بالمحبة:

أحدهما يقول أصحابه: نعم نحن نؤمن بأن محمداً رسول الله، وأنه بدون محبته لا يستقيم إيمان العبد، ونحن نحبه ﷺ أكثر من أولادنا وآبائنا وأنفسنا، ونؤمن بأنه جاءنا برسالة التوحيد، لكنه صلوات ربي وسلامه عليه بشر وقد أدى الرسالة ولم يجعل الله لبشر الخلد في الأرض، فترك لنا عليه الصلاة والسلام رسالته وسنته لنعمل بها؛ فلِمَ المبالغة في التركيز على شخصه وصفاته ومجاوزة الحد في مدحه؟

أليس من الأولى بنا الاشتغال بمحتوى الرسالة التي جاء بها؟

ودلالة هذا الكلام هي النظر إلى سيدنا محمد صلوات ربي وسلامه عليه على أنه كان كساعي بريدٍ أعطانا الرسالة وأخذناها منه، ثم ذهب وعلينا أن نُشغل نحن بالرسالة لا بالرسول. لكن عمل الصحابةِ والسلف الصالح من أهل القرون الأولى رضي الله عنهم لم ينطلق عن هذا الفهم الخاطئ ولم يقابلوه على أنه ﷺ أدّى الرسالة وذهب، وكان عملهم يدل على أن الرسالة لا تنفصل بحال عن الرسول.

فالصحابةُ الكرام عاملوه ﷺ بكليته لأن المنظارَ الذي كانوا ينظرون به إلى النبي عليه الصلاة والسلام غيرُ المنظار الذي يتم ترويجه اليوم وغيرُ الكلام الذي يردد على الأسماع، يقولون لنا: لا تبالِغُوا ولا تغالوا ولا تتجاوزوا الحد، فهل عرفتم الحد حتى تتهموا غيركم بالتجاوز؟ وما معنى الحدِّ الذي يُتكلّم عنه؟ وأين هذا الحدُّ من قوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، أو من فعل الصحابة الذين كانوا يتبركون بآثاره الشريفة ويتسابقون على موضع وقوفه على المنبر ويتمسحون برمّانة منبره ﷺ؟[1].

(١) انظر كتاب التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد للإمام ابن عبد البر النمري القرطبي، في الحديث رقم خمسة وثلاثين من رواية=

وأما الفهم الآخر فيقول أصحابه: نحن نحب سيدَنا محمدًا ﷺ ونُجِلُّه ونبحث عن بركة من آثاره، فهذا كله حسن لكنهم يقفون عند هذا الحد، فلا تجد عندهم همة في الاتباع ولا الخدمة، وهنا موضع الخلل إذ يصرف المؤمن همه للتفكير في كيفية رؤية النبي ﷺ وكيفية الاتصال بآثاره الشريفة، وهذا أمر عظيم حسن لكن الاشكال في الاقتصار عليه كما سبق بيانه، بحيث يمر عليه حينٌ من الدهر ولا يخطرُ على قلبه مرةً من المرات أن يسأل نفسه: ما مهمتي تِجاه أمة النبي ﷺ ؟

= يحيي بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم بن الحرث (وهو أحد ثقات أهل المدينة ومحدثيهم معدود في التابعين) روي عنه أنه قال: رأيت سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر يأخذان برمانة المنبر ثم ينصرفان. وانظر الطبقات الكبرى لابن سعد عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عبد القارئ أنه نظر إلى ابن عمر وضع يده على مقعد النبي ﷺ من المنبر ثم وضعها على وجهه، وعن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: رأيت ناساً من أصحاب النبي ﷺ إذا خلا المسجد أخذوا برمانة المنبر الصلعاء التي تلي القبر بميامنهم ثم استقبلوا القبلة يدعون، وفي سير أعلام النبلاء للإمام الحافظ الذهبي في ترجمة الإمام مالك: «فقال مصعب الزبيري: سمعت ابن أبي الزبير يقول: حدثنا مالك، قال: رأيت عطاء بن أبي رباح دخل المسجد، وأخذ برمانة المنبر، ثم استقبل القبلة».

لا شك أن هناك خللاً في كل من الفهمين، فكما أن الأول معروفٌ وواضحٌ خللُه؛ إذ جعل المهمة جهادًا وقتالاً وتعليمًا ودعوةً مع انقطاع القلب عن الارتباط بسيدنا محمد ﷺ، فكذلك الآخر الذي اقتصر في حبه على جانب ضيق من الارتباط، وما صحّ ارتباطُه بالمعنى الواضح الواسع، ذلك أن من وصل إلى عمق حقيقة الارتباط لا يَقِر له قرارٌ حتى يرتبطَ بالمهمة.

فالصحابة رضي الله عنهم الذين عايشوا رسول الله ﷺ امتلأت قلوبهم بهذه المعاني الجامعة، فتحولت في حياتهم إلي ثلاثةِ أشياءَ: اتباع، وخدمة، وبذل.

۞ ذوق الاتباع

فأما الاتباع فصاروا يتابعونه في كل شيء، حتى وَصَل تذوُّقُ الاتباع إلى حد عمق مشتهيات أنفسهم. وتأمل كيف صار اتباع النبي ضمن شهوات نفوسهم، إذ يقول سيدُنا أنسُ بن مالكٍ رضي الله عنه: «**إِنَّ خَيَّاطًا دَعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ، فَذَهَبْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَرَأَيْتُهُ يَتَتَبَّعُ**

الدُّبَّاءَ مِنْ حَوَالَيْ الْقَصْعَةِ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ»[1].

فلو قال سيدنا أنسٌ رضي الله عنه: فَلَمْ أَزَلْ أتتبع الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ، لكان الأمر في ذاته صورةَ اتباع، لكن المسألة كانت أعمقَ من ذلك لدى الصحابة الكرام، ولذلك قال أنس: «فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ الدُّبَّاءَ مِنْ يَوْمِئِذٍ»، وهنا فرق كبير، فقوله «فَلَمْ أَزَلْ أُحِبُّ» يعني أن قوة حبّي للنبي ﷺ جعلت اتباعي شيئاً ذوقياً في قلبي، لأن الاتباع في الظاهر قد يورث تذوقاً في الباطن، لكن ما فعله سيدنا أنس من اتباع كان تذوقاً في الباطن أورث اتباعاً في الظاهر، وهنا يظهر الفرق بَيِّنًا، فهذا الذوق جعله يتعشق كل شيء يفعله النبي ﷺ،

---

(١) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه (٤٣١/٣)، كتاب الأطعمة، باب من تتبع حوالي القصعة مع صاحبه إذا لم يعرف منه كراهية، ح (٥٣٧٩)، وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الأشربة، ح (٢٠٤١) (١٨٦/١٣ بشرح النووي، باب جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين) وفي الرواية التي تليها في صحيح مسلم: «دَعَا رَسُولَ الله ﷺ رَجُلٌ فَانْطَلَقْتُ مَعَهُ فجيء بِمَرَقَةٍ فِيهَا دُبَّاءٌ فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَأْكُلُ مِنْ ذَلِكَ الدُّبَّاءِ وَيُعْجِبُهُ، قَالَ: فَلَمَّا رَأَيْتُ ذَلِكَ جَعَلْتُ أُلْقِيهِ إِلَيْهِ وَلاَ أَطْعَمُهُ. قَالَ: فَقَالَ أَنَسٌ: فَمَا زِلْتُ بَعْدُ يعجبني الدُّبَّاءُ».

وحتى في الأكل صارت نفسه تشتهي الذي كان يشتهيه ﷺ.

قد يسمع أحدُنا هذا الحديث فيقول إن النبي ﷺ كان يحب الدُّبَّاءَ، وأن أنسًا رضي الله عنه صار يميل إليها، فيقول: وأنا أتابع النبي عليه الصلاة والسلام أيضاً في ذلك، فيغصِبُ نفسَه على أكل الدُّبَّاءَ، وهو ـ إن شاء الله ـ على خير، لأنه أراد أن يتبع سيدنا محمداً ﷺ، لكن القضية في الاتباع أعمق من ذلك.

القضية في الاتباع تشمل المعاني الواسعة، في مقصد الحياة ووسيلتها، وفي طريقة التعامل معها، وفي الهمة وفي جعل الاتباع محبوباً في القلوب، فحقيقةُ المسألة أن الاتباع تملَّك كُلياتِهم فصار جِبلِّيًا كأنه الفطرة السامية، ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[1].

وفي صحيح البخاري قال سَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ عَنْ أَبِيهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «أَنَّهُ رُئِيَ وَهُوَ فِي مُعَرَّسٍ

(١) النساء: ٦٥.

بِذِي الْحُلَيْفَةِ بِبَطْنِ الْوَادِي قِيلَ لَهُ إِنَّكَ بِبَطْحَاءَ مُبَارَكَةٍ وَقَدْ أَنَاخَ بِنَا سَالِمٌ يَتَوَخَّى بِالْمُنَاخِ الَّذِي كَانَ عَبْدُ اللهِ يُنِيخُ يَتَحَرَّى مُعَرَّسَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ أَسْفَلُ مِنَ الْمَسْجِدِ الَّذِي بِبَطْنِ الْوَادِي بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الطَّرِيقِ وَسَطٌ مِنْ ذَلِكَ»[1].

بل وجدوه لما مر بالروحاء - وهي بئر بين المدينة وبدر - يترك المسجد الذي في الطريق، فلا يصلي فيه، وإنما يذهب إلى مكانٍ ما ويصلى هناك، لأنه كان يَعْلَمُ ويتحرى الْمَكَانَ الَّذِي صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب قول النبي ﷺ (العقيق واد مبارك) ح (٢/٥٥٦)، أخرجه مسلم في الحج، باب التعريس بذي الحليفة والصلاة بها، رقم ١٣٤٦.

(٢) انظر رواية الإمام البخاري: «وَأَنَّ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ حَدَّثَهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ صَلَّى حَيْثُ الْمَسْجِدُ الصَّغِيرُ الَّذِي دُونَ الْمَسْجِدِ الَّذِي بِشَرَفِ الرَّوْحَاءِ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ اللهِ يَعْلَمُ الْمَكَانَ الَّذِي صَلَّى فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، يَقُولُ: ثَمَّ عَنْ يَمِينِكَ حِينَ تَقُومُ فِي الْمَسْجِدِ تُصَلِّي، وَذَلِكَ الْمَسْجِدُ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ الْيُمْنَى وَأَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمَسْجِدِ الْأَكْبَرِ رَمْيَةٌ بِحَجَرٍ أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ، وَأَنَّ ابْنَ عُمَرَ كَانَ يُصَلِّي إِلَى الْعِرْقِ الَّذِي عِنْدَ مُنْصَرَفِ الرَّوْحَاءِ، وَذَلِكَ الْعِرْقُ انْتِهَاءُ طَرَفِهِ عَلَى حَافَةِ الطَّرِيقِ دُونَ الْمَسْجِدِ الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْمُنْصَرَفِ وَأَنْتَ ذَاهِبٌ إِلَى مَكَّةَ، وَقَدْ ابْتُنِيَ ثَمَّ مَسْجِدٌ،=

وهو أمر يتوارثُه الأبناء ويتعاهدونه، فيحدثنا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ قَالَ: «رَأَيْتُ سَالِمَ بْنَ عَبْدِ اللهِ يَتَحَرَّى أَمَاكِنَ مِنْ الطَّرِيقِ فَيُصَلِّي فِيهَا، وَيُحَدِّثُ أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يُصَلِّي فِيهَا، وَأَنَّهُ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ يُصَلِّي فِي تِلْكَ الْأَمْكِنَةِ»[1].

ولا شك أن من وصل إلى هذه المرتبة من الاتباع المبني على التعلق القلبي يكون من باب أولى حريصاً على الاتباع في المعاملات والسلوكيات، بخلاف من جعل الاتباع مجرد صورة ليست متصلة بحقيقة التعلق القلبي، فتراه يدقق في بعض صور الاتباع الشخصي في الهيئة والشكل إلى حد التنطع مع مخالفته للاتباع في أمور المعاملات والسلوكيات.

= فَلَمْ يَكُنْ عَبْدُ اللهِ بْنُ عُمَرَ يُصَلِّي فِي ذَلِكَ الْمَسْجِدِ كَانَ يَتْرُكُهُ عَنْ يَسَارِهِ وَوَرَاءَهُ وَيُصَلِّي أَمَامَهُ إِلَى الْعِرْقِ نَفْسِه» انظرها في صحيحه (١/١٧٢)، كتاب الصلاة، باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ، ح (٤٨٦).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (١/١٧١)، كتاب الصلاة، باب المساجد التي على طرق المدينة والمواضع التي صلى فيها النبي ﷺ، ح(٤٨٣).

۞ الخدمة مع الاتباع فرعٌ عن البذل

ومع الاتباع تأتي الخدمةُ، أي حبُ الخدمةِ لرسول الله ﷺ والتنافسُ عليها، والخدمةُ في الحقيقة هي فرع عن البذل، لكنها فرع أخذ مجالاً حتى صار شيئًا مستقلا، فالخدمة هي بذلُ الوُسعِ في القيام بحاجة المخدوم إدخالاً للسرور عليه، فهذا هو المعنى الراقي للخدمة، فصارت الخدمةُ على هذا النحو فرعًا عن البذل.

تأمل سببَ خدمةِ سيدنا أنسٍ رضي الله عنه للنبي ﷺ، إذ يروي سيدنا أنسٌ فيقول: «**أَخَذَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ بِيَدِي مَقْدَمَ النَّبِيِّ ﷺ الْمَدِينَةَ فَأَتَتْ بِي رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا ابْنِي وَهُوَ غُلَامٌ كَاتِبٌ، قَالَ فَخَدَمْتُهُ تِسْعَ سِنِينَ**»[1]، فمعنى الحبِّ الذي استقر في قلب سيدتنا أمِّ سُليمٍ رضي الله عنها جعلها تفكر بالبذل، والبذل أوصلها إلى معنى الخدمة له ﷺ.

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩/٢٧٥) ح (١٢٢٥١)، وابن سعد في طبقاته (٧/١٩)، كلاهما عن يزيد بن هارون، عن حميد، عن أنس، وسندهما صحيح.

ثم رأينا من الصحابة رضي الله عنهم عجائبَ من معاني البذل والخدمة والمتابعة والاتباع لحضرته ﷺ أنهضت أمةً بأكملها في الوجود، ولقد عرَف تلك المعانيَ الكبيرُ والصغيرُ، وتعاملوا بها من خلال صلتهم برسول الله ﷺ، فتجدُ سيدَنا عليَّ بنَ أبي طالب أولَ فدائي في الإسلام وهو في الثالثة والعشرينَ يبيت في مضجع رسول الله ﷺ، وهو يعلم أن السيوف والرماحَ تنتظره في الخارج.

وتجدُ أسماءَ بنتَ أبي بكر الصديق ـ وهي لا تزالُ صغيرةً ـ تخاطر بنفسها وتخرجُ إلى الغار، وقد شقّت نطاقها إلى نطاقين تحملُ فيهما الطعام والشرابَ لرسول الله ﷺ ولسيدنا أبي بكر الصديق[1]، وتتعرض من أجل هذا للطمة آثمة من يد أبي جهل تسيل الدم من وجهها الكريم.

---

(١) ففي رواية الإمام البخاري قالت: صَنَعْتُ سُفْرَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَيْتِ أَبِي بَكْرٍ، حِينَ أَرَادَ أَنْ يُهَاجِرَ إِلَى المَدِينَةِ، قَالَتْ: فَلَمْ نَجِدْ لِسُفْرَتِهِ، وَلاَ لِسِقَائِهِ مَا نَرْبِطُهُمَا بِهِ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: «وَاللَّهِ مَا أَجِدُ شَيْئًا أَرْبِطُ بِهِ إِلَّا نِطَاقِي»، قَالَ: فَشُقِّيهِ بِاثْنَيْنِ، فَارْبِطِيهِ: بِوَاحِدٍ السِّقَاءَ، وَبِالْآخَرِ السُّفْرَةَ، «فَفَعَلْتُ، فَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ»، أخرجه البخاري في صحيحه، (٥٤/٤)، كتاب الجهاد والسير، باب حمل الزاد في الغزو، ح (٢٩٧٩).

وتجدُهم في وقت الجهاد يتنافسون: كلٌّ واحد يريد أن يخرجَ ويجاهدَ في سبيل الله، وينظرُ النبي ﷺ إلى صغار السن فيؤخرُهم، فتراهم يقِفون على أطراف أصابعهم، ليبدو كل واحد أطول من الآخر، وهذه المنافسة ليست على نزهة ولا رحلةِ صيدٍ، وإنما هي منافسةٌ على الموت، كلٌّ يريد أن يبذل وأن يخدُمَ وأن يتّبع الحبيبَ ﷺ. يَقبل النبيُّ ﷺ واحدًا من الفتيان لأنه يرمي بالسهام، ويردُّ الآخرَ لأنه بدا أصغر حجماً، فيُخبر النبيَ ﷺ أنه يستطيع أن يَصرَع مَنْ أجازه، فيجيزه الرسولُ عليه الصلاة والسلام كذلك[1].

وهذا مُعَاذُ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْجَمُوحِ يسأل سيدنا عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ يوم بدر: «يَا عَمِّ هَلْ تَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ يَا ابْنَ أَخِي؟ قَالَ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَئِنْ رَأَيْتُهُ لاَ يُفَارِقُ سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الأَعْجَلُ مِنَّا، ثم يسأله

(١) وَأَجَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمئِذٍ سَمُرَةَ بْنَ جُنْدُبٍ الْفَزَارِيّ وَرَافِعَ بْنَ خَدِيجٍ، أَخَا بَنِي حَارِثَةَ، وَهُمَا ابْنَا خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً وَكَانَ قَدْ رَدّهُمَا، فَقِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ إنّ رَافِعًا رَامٍ، فَأَجَازَهُ، فَلَمّا أَجَازَ رَافِعًا، قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللهِ فَإِنّ سَمُرَةَ يَصْرَعُ رَافِعًا، فَأَجَازَهُ (سيرة ابن هشام ٢/٦٦).

مُعَاذَ بْنَ عَفْرَاءَ مِثْلَهَا، فَلَمْ أَنْشَبْ أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، فَقُلْتُ: أَلَا إِنَّ هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي سَأَلْتُمَانِي فَابْتَدَرَاهُ بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ»[1].

يتحرك مجتمعٌ بأكمله، كله بذل وكله عطاء، وتأخذ فيه المرأة بنصيب وافر غير منقوص، فهذه أمُّ عمارةَ تُعرض نفسها للقتل وتستميت في الدفاع عن النبي ﷺ[2]، وهذه امْرَأَةٌ مِنْ بَنِي دِينَارٍ قَدْ أُصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِأُحُدٍ فَلَمّا نُعُوا لَهَا، قَالَتْ: فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: خَيْرًا يَا أُمّ فُلَانٍ هُوَ بِحَمْدِ اللهِ كَمَا تُحِبّينَ، قَالَتْ أَرُونِيهِ حَتّى أَنْظُرَ إِلَيْهِ قَالَ فَأُشِيرَ لَهَا إِلَيْهِ حَتّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ كُلّ مُصِيبَةٍ بَعْدَك جَلَلٌ تُرِيدُ صَغِيرَةً[3]، فلم تعد أنفسهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بَابُ مَنْ لَمْ يُخَمِّسِ الْأَسْلَابَ وَمَنْ قَتَلَ قَتِيلًا فَلَهُ سَلَبُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخَمِّسَ وَحُكْمِ الْإِمَامِ فِيهِ، ٤/٩٣ ح (٣١٤١)، ومسلم في صحيحه، باب استحقاق القاتل سلب القتيل، ٥/١٤٨ ح (٤٦٦٨).

(٢) سيرة ابن هشام ٢/٨١.

(٣) سيرة ابن هشام ٢/٩٩.

ولا أزواجهم ولا أولادهم حائلا دون انطلاق مشاعرهم بالمحبة والبذل لرسول الله ﷺ.

إن الاتباع المقترن بالخدمة والحب الذي أورث البذل جعل المقياس عندها في سلامة رسول الله ﷺ، فإذا كان النبي ﷺ بخير فكل شيء هين ومحتمل! فهل هذا المقياس يطيقه سائر البشر؟ إن آحاد البشر يصعب عليهم أن يطيقوا ذلك، لكن بشرية المرأة الدينارية اتصلت بالاقتداء ببشرية سيدنا محمد ﷺ فسرت إليها أنوارُ خصوصيته، فأطاقت ما لا يُطيقه البشر من أمثاله.

۞ من الاقتداء إلى الانقياد إلى القيادة

إن هذا المعنى هو الذي نحتاج إليه اليومَ في واقع الأمة، أن نُحيِيَ في أنفسنا صفاتِ البذل والعطاء، وهذا يتطلب أن نفقه معانيَ ومفاهيمَ الاقتداء والاتباع والمحبةِ لجوانب الكمال في سيدنا محمد ﷺ، الذي كان أكلُه للطعام ومشيُه في الأسواق من أخص صفات كماله، ومن أنوار خصوصيته ـ ﷺ ـ في قالَب بشريته، فأكل الطعام متصل بحاجة الإنسان، ومشيه في الأسواق متصل بتعاملاته مع العالم

المحيط به في إطار رغبات نفسه وميولاتها.

وهاتان الحالتان تلخصان تحدي الأخلاق في حياة الإنسان، فإذا قامتا وفق هذا المعنى من المتابعة ارتقتا بالإنسان في صلته بحاجاته ورغباته.

فإذا فقهنا هذا المعنى من الاتباع والانقياد ولَجنا إلى أمر المهمة والغاية، على أساس ارتباط قلوبنا بالعبادة والخلافة. ولقد كان شغلُ الصحابة رضوان الله عليهم جميعًا هو كيف ينقادون لله؟ فلما رسخ في قلوبهم ذلك المعنى صاروا قادةً للعالم كُلِّه، وحتى يدخل الأعرابي منهم كرِبعيّ بنِ عامرٍ على رستم قائدِ الفرس، ليقول له: «إن الله ابتعثنا لنخرجَ من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سَعتها، ومن جَوْرِ الأديان إلى عدل الإسلام؛ فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوَهم إليه»[1].

وهذا الأمر يرتقي بالإنسان إلى مستوى ضبط انفعالاته فلا يتجاوز في دفعه الاعتداء إلى الحد الذي يكون فيه

(١) تاريخ الطبري، حوادث سنة أربع عشرة، ٤٠١/٢، البداية والنهاية لابن كثير، غزوة القادسية، ٣٩/٧

معتدياً، كما نراه في سلوك من يقتصرون على صورة الاتباع دون الصلة بالمتبوع، ولم تعرف البشرية شبيهاً للصحابة في إكرام الأسير الذي كان قبيل أسره يعتدي عليهم ويقاتلهم، حيث كان أحدهم يؤثر أسيره على أولاده بأطايب الطعام امتثالاً لأمره ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالْأُسَارَى خَيْرًا»[1].

فهذا هو الفرق بين الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين وغيرهم، لمّا رسخت في قلوبهم إرادةُ الانقياد لله ووصل العالم بالله تعالى، اصطفاهم الله عز وجل وجعل منهم أئمةً وأورثهم الأرضَ وائتمنهم على أسرار الخلافة، فنالوها ظاهرًا وباطنًا، لأن من صح انقيادُه لله تعالى صلح أن يقودَ العالم.

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (٣٩٣/٢٢، رقم ٩٧٧)، وفي الصغير (٢٥٠/١، رقم ٤٠٩) من حديث أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير، قال الهيتمي (٨٦/٦): إسناده حسن، قال أبو عزيز بن عمير: «وَكُنْتُ فِي رَهْطٍ مِنْ الْأَنْصَارِ حِينَ أَقْبَلُوا بِي مِنْ بَدْرٍ فَكَانُوا إذَا قَدّمُوا غَدَاءَهُمْ وَعَشَاءَهُمْ خَصّونِي بِالْخُبْزِ وَأَكَلُوا التّمْرَ لِوَصِيّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إيّاهُمْ بِنَا، مَا تَقَعُ فِي يَدِ رَجُلٍ مِنْهُمْ كِسْرَةُ خُبْزٍ إلّا نَفَحَنِي بِهَا. قَالَ فَأَسْتَحْيِيَ فَأَرُدّهَا عَلَى أَحَدِهِمْ فَيَرُدّهَا عَلَيّ ما يَمَسّهَا». (سيرة ابن هشام ٦٤٤/١ الروض الأنف ٩٥/٣، معرفة الصحابة لأبي نعيم ٢٩٦٧/٥).

خاتمة

كان هذا التطواف بمعانٍ تتصل بمفهوم بشريته ﷺ، التي تفضي إلى الارتقاء إلى أنوار خصوصيته التي تجمع القلب على حقائق التوحيد.

أسأل الله تعالى كمال التوفيق والتحقق بهذه المعاني إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا والحمد لله رب العالمين.

فهرست

الموضوع	الصفحة
تقريظ الإمام العلامة عمر بن محمد بن سالم بن حفيظ	٥
تصدير	٩
أعمار الإنسان	١١
الغاية من الوجود ومهمة كل موجود	١٣
مفهوم الكمال المطلق ونموذج الكمال النسبي	١٥
نموذج الإنسان الكامل لدى النصارى	١٥
دِلَالات الكمال	١٧
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ	١٩
حقيقة المهمة في معنى البشرية	٢١
مِفْتاح التميز في الارتباط بالكامل	٢٥
الخصوصية في الصورة البشرية	٢٩
كمال الإيمان بمحبة سيد الأكوان	٣٢
سريان أنوار الخصوصية عند الاتصال بالبشرية	٣٥

الموضوع	الصفحة

على قدر مراتب الاتصال والفهم تُنال الدرجات ٣٩

سريان الخصوصية إلى الزمان والمكان ٤٣

فَهْمُ حقيقةِ معنى التوحيد واتصالها بالحبيب ٤٥

ارتباط الرسالة بالرسول والمهمة بالمحبة ٤٨

ذوق الاتباع ٥١

الخدمةُ مع الاتباع فرعٌ عن البذل ٥٦

من الاقتداء إلى الانقياد إلى القيادة ٦٠

خاتمة ٦٣

فهرست ٦٥

** ** **

المســـيرة العمـــلية:

* مؤسس ورئيس مؤسسة طابة في أبو ظبي في الإمارات العربية المتحدة.

* عضو مجلس إدارة دار المصطفى للدراسات الإسلامية في تريم - اليمن ومحاضرا فيها.

* عضو عامل في مؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي في عمان - الأردن.

* الأمين العام لمجلس أمناء جوائز المحبة في أبو ظبي.

* تأسيس مركز النور لصيانة وتوثيق وتحقيق المخطوطات في تريم - اليمن.

* تأسيس مؤسسة GUIDANCE MEDIA الإعلامية في المملكة المتحدة.

* شارك في تأسيس وإدارة المشروع التاريخي كلمة سواء.

* الإشراف والمشاركة في تأسيس مدارس وأربطة إسلامية في مختلف أنحاء العالم لنشر المنهج الأصيل في تلقي العلوم والتربية السلوكية.

* يقيم دروساً و مجالس للتعليم والإرشاد والتوجيه والتوعية والدعوة إلى الله في بلدان شتى منذ عام ١٩٩١م وحتى الآن.

تصميم الغلاف: قتيبة المحاويلي
ANDROMEDALIGHTS.COM

سلسلة اصدار رقم ١

سِيَرُ الخُصُوصِيَّةِ فِي الإِرْتِبَاطِ بِخَيْرِ البَرِيَّةِ

هذي لَيَالِي الأُنْسِ فِيْ مَجْلَى السُّعُوْدِ ... هذي مَعَانِي القُرْبِ فِي مَرْقَى الصُّعُودِ
هذي غَوَادِي الحُبِّ مِنْ نَظَرَاتِهِ ... هذا سَنَا المُخْتَارِ فِي عَطْفِ وَجُودِ
هذا جَمَالُ المُصْطَفَى فِي بُرْدِهِ ... فِي خِلْعَةِ الإِحْسَانِ قَدْ غَمَرَ الوُجُودِ
يا إِخْوَتِي هذي حِبَالُ الوَصْلِ مِن ... طَـهَ تَمُدُّ لَكُمْ فَأَوْفُوا بِالعُهُودِ
هَبَّتْ نُسَيْمَاتُ العَطَاءِ مِنْ حَضْرَةٍ ... حَنَّتْ لَهَا الأَرْوَاحُ مِنْ قَبْلِ المُهُودِ
السَّعْدُ بَلْ والغُنْمُ فِيْهَا والمُنَى ... فَتَغَانَمُوا هذي اللَّيَالِي مِنْ زَرُوْدِ
هيّا نَسِـرْ فُؤَادُهُ فِي دَعْوَةٍ ... تُحْيِي مَوَاتَ قُلُوْبِنَا بَعْدَ الرُّكُوْدِ
هيّا إِلى سَاحَاتِ خِدْمَةِ شَرْعِهِ ... فِيْ هِمَّةٍ تُبْدِي لَنَا سِرَّ السُّجُوْدِ
هيّا إِلى سَاحَاتِ خِدْمَةِ شَرْعِهِ ... فِيْ هِمَّةٍ تُبْدِي لَنَا فَكَّ القُيُوْدِ
هيّا اسْتَعِدُّوا لِلّقَاءِ بِحَوْضِهِ ... حَيْثُ الرِّضَا وَالأُنْسُ فِي حَالِ الوُرُوْدِ
ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى الحَبِيْبِ وَآلِـهِ ... وَالصَّحْبِ وَالأَتْبَاعِ مَا حَنَّتْ رُعُوْدِ

علي زين العابدين بن عبد الرحمن الجفري

يمكنكم الآن شراء اصداراتنا واصدارات ثقافية أخرى من خلال مكتبتنا الألكترونية الجديدة وسيتم ارسالها لعنوانكم بكل سهولة ويسر
DARALFAQIH.COM

دار الفقيه للنشر والتوزيع
DAR AL FAQIH
PUBLICATION & DISTRIBUTION